آليات المنهج الجنيالوجي، وراهنيتها في تشكلات الذات الديناميكية (2) [1]

د. عبد الغاني الهيداني

مفتش تربوي لمادة الفلسفة بجهة فاس مكناس، وأستاذ زائر بالمدرسة العليا للأستاذة بفاس

مقدمة:

غني عن البيان أن "فلسفة المطرقة" عند فريدريك نيتشه (Nietzsche Friedrich 1844- 1900) إذ تروم تحطيم كل ما أصابه العطب، الفساد والوهن في عالم الذات الإنسانية، فإنها تعلن خصومتها الجريئة لفلسفات الذات التي رسمت للذات صورة مطابقة لذاتها؛ متجاوزة، بذلك، الذات بوصفها تمثلا، والحقيقة باعتبارها يقينا، والفلسفة من جهة كونها حضورا؛ فأضحت الذات تعددا، والحقيقة منظورات، والفلسفة إمكانات متدفقة لاجتراح دروب جديدة للتفكير الفلسفي حول ما لم يتم التفكير فيه رغبة في إماطة اللثام عن ممكنات منسية من الذات، وإزالة العتمة عن جوانب مطمورة من الذات الإنسانية تحت أقنعة العقل الدوغمائي أو الأخلاق العامة أو اللاهوت الارتكاسي التي عمقت الهوة بين الذات وممكناتها الحيوية.

بهذا الاعتبار، يبدو لنا أن جنيالوجيا نيتشه ساهمت في نقل مسار التفكير الفلسفي المعاصر، بخصوص مسألة الذات، من منطق التطابق، الذي أرسى معنى ماهويا للذات، إلى منطق التعدد، باعتباره الميسم الحيوي لفلسفة تناشد تعددية الإمكانات المتاحة أمام الذات الساعية إلى تجاوز ذاتها، بشكل مستمر، في واقع طافح بالتدفق، الانسيابية والسيلان يجعل الذات عصية تأبى الانحشار داخل معان معرفية، أخلاقية ولاهوتية متكلسة؛ ذلك أنها مأوى التعدد والصيرورة، ومستودع التناقضات الخفية والقصية؛ كونها منفلتة دوما من القوالب الجامدة.

وعليه، نشير إلى أن مسعى آليات المنهج الجنيالوجي يتمثل في جعل التفكير الفلسفي حول مسألة الذات ترحالا، تجوالا وسفرا ماتعا يقهر كل الأغلال المنطقية الصارمة، والأصنام العقلية الدوغمائية المنكرة للجسد، والمسممة للحياة بغية خلق التوازن المطلوب بين البعدين الحسي والعقلي للذات، ما دمنا كلنا اليوم، حسب المنظور الجنيالوجي، ذواتا جسدية حيوية، حيث التكامل بين النظري والعملي مطلبا فلسفيا لبناء الذات الديناميكية في واقع محكوم بمنطق التغير والتعدد.

ينم المنظور الجنيالوجي لدى نيتشه، إذن، عن نزوعه إلى استعادة الذات العالقة بين مخالب الميتافيزيقا بمختلف تلويناتها المعرفية، الأخلاقية واللاهوتية. لكن، ليس بوصفها ذاتا متطابقة مع ذاتها، وإنما باعتبارها ذاتا تناشد التعدد والتجدد؛ أي باعتبارها مجموعة من الإمكانات المتدفقة التي نختبرها داخل متاهة الحياة الطافحة بالانسيابية والسيلان؛ وهذا ما يجعلنا نؤكد بأن آليات المنهج الجنيالوجي لم تتخذ النقد إلا وسيلة لبناء فكر خلاق جديد يمكن أن يساهم في إخراج الذات الإنسانية من سراديب العدمية والانحطاط اللذين ارتسما مع فلسفات الذات الكلاسيكية.

ولما كانت الممارسة الجنيالوجية ممارسة تفكيكية للمعنى دون إدعائها بلوغ المدى الأقصى لأي معنى، وحيث إن الجنيالوجيا تقدم نفسها باعتبارها منظورا فيلولوجيا وحربيا يكشف عن أعراض المرض ومظاهر الانحطاط والتقهقر بداخل الذات، فإن المنهج الجنيالوجي يوظف جملة من الآليات المنهجية بغية تفكيك آليات

1- نشير إلى أن هذه المقالة التي أفردناها للحديث عن الآليتين المنهجيتين: الآلية الفيلولوجية والآلية الحربية، وراهنيتهما في تشكل الذات الديناميكية هي تابع القول في مقالنا السابق)الصادر في المجلد الأول، العدد الأول، أبريل 2026، مجلة رصين الدولية، من الصفحة: 216 إلى الصفحة: 230 (حول ثلاث آليات للمنهج الجنيالوجي: الآلية السيميولوجية، الآلية السيكولوجية والآلية الفيزيولوجية، وراهنيتها في تشكل الذات الديناميكية.

الخطاب في مختلف تجلياته الميتافيزيقية)المعرفية، الأخلاقية واللاهوتية(من جهة أولى، مع التفكير في ترياق طبي فعال لتحقيق السمو والاقتدار للذات الديناميكية القادرة على تجاوز ذاتها من جهة ثانية. فإلى أي حد يمكن للمنهج الجنيالوجي، من خلال آليتيه المنهجيتين: الفيلولوجية والحربية، المساهمة الفعلية في تجدد الذات الإنسانية، في الزمن الراهن، من خلال الاستعاضة عن الصورة الدوغمائية للذات الماهوية بالأفق الديناميكي للذات المتعددة؟

سنحاول التفكير في هذا الإشكال من خلال توسلنا بمنهج ثلاثي الأبعاد: تحليلي، مقارن ونقدي؛ ومسترشدين بالموجهين الاستفهاميين الآتيين:

أولا: بأي معنى يمكن للآلية الفيلولوجية المساهمة، اليوم، في تشكل الذات الديناميكية؟

ثانيا: كيف ستساهم الآلية الحربية في تشكل الذات الديناميكية في الزمن الراهن؟

1. الآلية الفيلولوجية، وراهنيتها في تشكل الذات الديناميكية:

نشير، في البداية، إلى أن المنهج الجنيالوجي إذ يوظف الآلية الفيزيولوجية لإعادة قراءة الخطابات، القيم والمفاهيم انطلاقا من أحوال الجسد، باعتباره عقلا كبيرا، فإنه يتوخى قراءة تلك الخطابات، القيم والمفاهيم قراءة بطيئة بغية تفكيك تركيباتها النحوية، تعرية أفخاخها اللغوية، وإماطة اللثام عن الأوهام التي تنطوي عليها تسمياتها الزائفة التي تحد من حيوية الجسد. فما الآلية المنهجية التي ستوظفها الجنيالوجيا لهذا الغرض؟

يلاحظ باتريك وتلينغ، في كتابه "معجم نيتشه"، أن "الفيلولوجيا "La philologie[1] تمثل إحدى الاستعارات الأساسية التي تحضر في الكتابة النيتشوية؛ إذ تدل، في اصطلاح فريدريك نيتشه، على "القراءة البطيئة والهادئة لمختلف النصوص، بعيدا عن الأحكام القبلية"[2] التي تخصي عنصر البراءة عن منطق القراءة العميقة للنصوص بمختلف مشاربها، بغية تفكيك ألفاظها ومساءلة مصادرها.

لذا، ننبه إلى أن التكوين الفيلولوجي الرصين لفريدريك نيتشه هو الذي سمح له بتفكيك الألفاظ ومساءلة مصادرها بتأنّ وتريث شديدين؛ فما من مفكر أطل على المنهج الفيلولوجي إلا وتعلم فن القراءة البطيئة، وأخذ الحيطة والحذر في إصدار الأحكام، وأدرك أن لا شيء بديهي أو مطلق؛ فكل ما نتفوه به من كلمات إلا ويحوي في ذاته رؤية للذات ومنظورا خاصا للحياة. ومن ثمة، فإن القول ببراءة الكلمة وخلوها من أي ثقل وجودي يوقعنا في ضرب من العبث.

هكذا، يمكننا أن نميز في فلسفة نيتشه بين الفيلولوجيا والجنيالوجيا؛ ففي الوقت الذي تمثل فيه الأولى جانب القراءة المنصتة لمكونات النص إنصاتا عميقا من قبل الذات، فإن الثانية تعبر عن لحظة التأويل الذي تمارسه الذات بحثا عن القيمة والمعنى. لكن، هل هذا الفصل بين الفيلولوجي والجنيالوجي، لدى نيتشه، إعلان عن التفرقة القطعية بين الإثنين؟

صحيح أن فريدريك نيتشه ميز، في الشذرة رقم 52 ضمن مؤلفه "ضد المسيح"، "بين فعلي القراة والتأويل"،[3]

1- تتكون كلمة "فيلولوجيا" من شقين: "فيلوس" وتعني المحبة والإيثار و"لوغوس" الذي يشير إلى الكلام؛ أي محبة الكلام، وقد "تم اعتماد الفيلولوجيا منهجا في قراءة الوثائق بوصفها الدراسة الأثرية لمنتوج فكري معين مكتوب على شكل وثائق ونصوص دون التقيد بمذهب فلسفي محدد؛ إنها التفتح على كل ما هو مكتوب باعتباره تراثا إنسانيا عقليا بغية تحقيق هذه النصوص وتوثيق مصادرها."

إبراهيم، عبد الله، المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1997، ص 154.

2- Wotling, Patrick, Le Vocabulaire de Nietzsche, Ellipses, Paris, 2013, P 40.

3- Nietzsche, Friedrich, L'Antéchrist, Traduction et présentation de Dominique Tassel, Union générale d'éditions, France, 1985, aph 52.

وصحيح أنه اعتبر ،في كتاب "إنساني مفرط في إنسانيته"، "الفيلولوجي، وحده، من يستطيع ممارسة فعل القراءة ببطئ وهدوء، بحيث يستغرق نصف ساعة لقراءة ستة أسطر فقط".[1] لكننا نشير إلى أن فعلي القراءة والتأويل وجهان لعملة واحدة؛ إذ لا يمكن لعملية التأويل أن تتحقق فعليا إلا بعد خوض تجربة القراءة البطيئة، ولا قيمة لقراءة هادئة لا تحرض الذات، الساعية إلى تجاوز ذاتها، على ممارسة فعل التأويل مادامت الفلسفة نفسها، حسب جنيالوجيا نيتشه، تأويل لتأويل.

على هذا الأساس، نجد أن الآلية الفيلولوجية للمنهج الجنيالوجي تتمحور حول مفهوم "التسمية الزائفة/الكاذبة"، حيث تمكننا هذه اللآلية من "قراءة النصوص قراءة بطيئة بغية تفكيك لغة تلك النصوص، وتعرية الأفخاخ اللغوية، مع كشف الأوهام التي تنطوي عليها، وفضح طبيعتها المخاتلة والمخادعة."[2] إنها آلية منهجية اعتمدها صاحب الجنيالوجيا في إعادة قراءة مختلف النصوص والخطابات خاصة الأخلاقية منها، باعتبارها نصوصا تمارس الزيف، الكذب والتغليط، لأنها نصوص تدعي قول الحقيقة المطلقة، ووحدة المعنى؛ والهدف هو فضح هذه النصوص، وإماطة اللثام عن مغالطاتها التي أرست معنى تطابقيا للذات المنغلقة على ذاتها.

في هذا المقام، يوضح نيتشه، في مؤلفه "إنساني مفرط في إنسانيته"، أن "العقل الإنساني تعالى عن الطبيعة، وزيف أسماءها؛ ومنذ ذلك الحين ونحن تحت وطأة التسميات المزيفة للأشياء"؛[3] فالفكر الدوغمائي، منذ نشأته، وهو يبتكر أسماء زائفة، وألفاظا كاذبة، وعبارات خادعة تناقض منطق الذات المتجاوزة لذاتها، والتي تناشد الصيرورة، التحول، التعدد وتدفق المعاني. لذلك، يمكننا القول بأن اللغة بأسمائها، ألفاظها وعباراتها قد توقعنا في الظلال والتيه؛ ويمكن التبرير لهذا الادعاء بالقول: إن اللغة لا تقول كل شيء، بل تعمق الهوة، في بعض الأحيان، بين ما نقوله وما نقصده، بين ما نفكر فيه وما نعبر عنه، وبين ما نتلفظه وما نشير إليه؛ مع متقدم التظنن أن العلاقة بين الدال والمدلول علاقة اعتباطية وليست علاقة ضرورية.

هكذا، يبدو لنا أن ألفاظ اللغة، منظورا إليها جنيالوجيا، تغدو جامدة، زائفة وكاذبة لأنها تقضي على حركية وحيوية الأشياء الخاضعة لمنطق الصيرورة والتغير؛ وقد وجدت اللغة، في عيون الفيلولوجيا، لاختزال المتعدد والمتنوع، بداخل الذات، ضمن وحدة ثابتة/جامدة تدعي قول الحقيقة الواحدة، وامتلاك المعنى النهائي. فكيف يمكن المحاججة على هذا الادعاء جنيالوجيا؟

نشير إلى أن ميشيل فوكو راح، في كتابه الموسوم ب: "جنيالوجيا المعرفة"، يمعن النظر في العلاقة القائمة بين مفهومي اللغة والسلطة؛ مؤكدا أن ألفاظ اللغة تتوخى بسط الهيمنة والسيطرة على الأشياء من خلال إفراغها من تعددها وتحولها وصيرورتها الأبدية. وحيث إن اللغة سلطة تروم الضبط والتحكم، فإنه يمكننا اعتبارها خائنة وليست بريئة مادامت تخفي وراءها إرادة الهيمنة والسيطرة. أو قل: "تتخفى غريزة السيطرة وراء ألفاظ اللغة."[4]

فعلا، تظل ألفاظ اللغة ارتكاسية)لغة الضعفاء(لأنها مضادة لطبيعة الأشياء، ومخالفة لحيوية الذات، الراغبة في تحقيق تجاوز مستمر لذاتها، التي تنعم بالتحول والتغير المستمرين. لذا، يبدو لنا أن اللغة إذ توظف أقنعتها الزائفة، وألفاظها الكاذبة للحد من براءة صيرورة العالم والذات، فإنها أضحت، في عيون صاحب الجنيالوجيا، ترياقا ساما

1- Nietzsche, Friedrich, Humain trop humain, Vol 1, Trad. Robert Rovini, Gallimard, Paris, 1987, aph 19.

2- أندلسي، محمد، الفلسفة من منطق العقل إلى منطق الجسد، جنيالوجيا الخطاب الميتافيزيقي، جامعة مولاي إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، سلسلة دراسات وأبحاث 11، المغرب، 2003، ص 130.

3- Nietzsche, Friedrich, Humain trop Humain vol1, op., cit., aph 24.

4- فوكو، ميشيل، جنيالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1988، ص 33.

يفصل الذات عن ذاتها عبر بوابة التزييف والكذب. لكن، أي كذب مدار الاستشكال الجنيالوجي؟

نسجل أن فريدريك نيتشه يميز في مؤلفه "إنساني مفرط في إنسانيته" بين معنيين للكذب: الكذب الفني المحمود، والكذب المقدس المذموم؛ ف" الأول قوي وفعال وإثباتي، لأن منبعه الروح الحر، ولغته القيم النبيلة، وشعاره "نعم الكبرى" للحياة، بينما الثاني ضعيف وارتكاسي وإنكاري، لأنه صادر عن روح القطيع وأخلاق العبيد التي تقول "لا" للغير ولكل ما يوجد خارجها".[1] لأنها لا تقوى على المواجهة والإقدام على الحياة.

ولما كانت حالة الارتكاس والضعف التي تعيشها الذات الضعيفة تدفعها لقلب التسميات والتقويمات، فإن فريدريك نيتشه يربط، في الشذرة العاشرة من مؤلفه "جنيالوجيا الأخلاق"، هذا القلب للنظرة المقومة بالضغينة المولدة لمشاعر الكراهية والحقد والانتقام المطبقة على النفوس الضعيفة حيال النبلاء."[2]

وحيث إن الخطابات الميتافيزيقية)المعرفية، الأخلاقية واللاهوتية(عبارة عن نوع من الترجمة "الخائنة" لنصوص الواقع، فإنه يبدو لنا أن التأويل الفيلولوجي شكل نمطا من فن اختراق الأقنعة وفضح أوهامها ومغالطاتها اللغوية من خلال فقه لغة جديد يتجاوز فخاخ اللغة الكاذبة: "فقه لغة لا يهتم بما تقوله الكلمات، وإنما يهتم بمن يمتلك سلطة الكلام، وبالقوى التي تتصارع في اللغة، ومن خلالها القوى التي تمتلك سلطة التأويل."[3]

نتبين، إذن، أن "ثقافة الإنسان اللغوية سيئة، وأن اللغة خائنة، لأنها تصور لنا عالما من الأشياء يخفي عنا العالم الحقيقي"؛[4] أي تستعيض الثقافة اللغوية المريضة عن واقعنا الطبيعي بواقع صوري. لذلك، يرى صاحب مؤلف " ماوراء الخير والشر" أن "ادعاء علماء الفيزياء، القائل بأن كل شيء يحدث وفقا لقوانين صارمة في الطبيعة، ادعاء لا وجود له إلا بفضل تفسيرهم، وسوء ثقافتهم اللغوية المشوهة للمعنى."[5]

بناء على ما تقدم، يمكننا القول: إن المنهج الجنيالوجي عند فريدريك نيتشه إذ يوظف الآلية الفيلولوجية لإماطة اللثام عن السلطة الثاوية خلف مختلف النصوص الميتافيزيقية، الأخلاقية واللاهوتية، فإنه يتغيا اجتراح طريق جديد للتفلسف بغية اقتلاع الأحكام المسبقة من جذورها؛ في أفق تأهيل الذات، الساعية إلى تجاوز ذاتها، لتستدمج كل ما هو حيوي أثناء نشاطاتها الإبداعية. فما الآلية المنهجية التي ستسخرها الجنيالوجيا لتحقيق هذا المبتغى؟

2. الآلية الحربية، وراهنيتها في تشكل الذات الديناميكية:

ورد في مداخلة لجيل دولوز، بمناسبة الندوة الثانية حول فريدريك نيتشه، والموسومة ب"نيتشه اليوم؟"، أن الآلية الحربية للمنهج الجنيالوجي، من جهة كونها أسلوبا منهجيا جديدا موجها ضد الأساليب السائد في الكتابة والتأويل، ستمكن من تمرير ما هو غير قابل للتقنين من قبل السنن السائدة؛ و"كأن الأسلوب عند نيتشه، من جهة كونه سياسة جديدة للفلسفة، يسعى إلى إقامة علاقة إشكالية بالفلسفة: علاقة لا يضبطها القانون ولا العقد ولا المؤسسة؛"[6] علاقة تجعل من فعل "التفلسف بضربات المطرقة"[7] فعلا فلسفيا خلاقا، ينأى عن كل صور الجمود

1- Nietzsche, Friedrich, Humain trop Humain 1, aph10.

2- نيتشه، فريدريك، في جنيالوجيا الأخلاق، ترجمة وتقديم فتحي المسكيني، مراجعة محمد محجوب، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010، الشذرة 10، ص 59.

3- Ray, Jean- Michel, L'enjeu des signes, lecture de Nietsche, les éditions du seuil, Paris, 1971, P 175.

4- مفرج، جمال، الإرادة والتأويل تغلغل النيتشوية في الفكر العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009، ص 94.

5- Nietzsche, Friedrich, Par- delà le bien et le mal, Traduction et présentation de Patrick Wotling, Éditions Flammarion, Paris, 2000, aph 22.

6- أندلسي، محمد، الفلسفة من منطق العقل إلى منطق الجسد، مرجع سابق، ص 116.

7- نشير إلى أن نيتشه وضع عبارة "التفلسف بضربات المطرقة" عنوانا فرعيا لمؤلفه "أفول الأصنام".

الفكري، لبلورة معنى تعددي للذات القادرة على تجاوز ذاتها بشكل مستمر.

نرى، من هذا المنطلق، أن الآلية الحربية للمنهج الجنيالوجي تتمحور حول مفهوم "التفلسف بضربات المطرقة" الذي حضر بشكل بارز في بعض مؤلفات فريدريك نيتشه الأساسية من قبيل: "أفول الأصنام"، "جنيالوجيا الأخلاق" و"هذا هو الإنسان"، حيث تهوي هذه الآلية الحربية على المثل الأخلاقية، النصوص الميتافيزيقية والخطابات اللاهوتية بواسطة مطرقتها العنيفة. لذلك، ربط كريستيان جامبي، في تقديمه لكتاب "أفول الأصنام"، المهمة الجنيالوجية للتفلسف بضربات المطرقة ب"إماطة اللثام عن أصل القبليات الأخلاقية، المقولات العقلية، والبداهات الدينية."[1] لكن، ما المقصود بالمطرقة في التيبولوجيا النيتشوية؟

تعبر المطرقة النيتشوية عن "جنيالوجيا القيم في مختلف تجلياتها الأخلاقية والفلسفية واللاهوتية."[2] بحيث تعمل على تعنيف الخطابات، المفاهيم ،النصوص والقيم لترغمها على الإفصاح عن ثغراتها، بياضاتها، مسكوتاتها ومضمراتها؛ بحثا عن مختلف الإمكانات الحيوية داخل الذات لإعادة ربطها بذاتها؛ وإجراؤها المنهجي، في ذلك، إجراء المباغتة للكشف عن اللامفكر فيه داخل تلك الخطابات، المفاهيم، النصوص والقيم التي أرست معنى تطابقيا للذات نتيجة مخاتلات منطق الثنائيات.

ذكر باتريك وتلينغ، في سياق حديثه عن أصالة المنهج الجنيالوجي، أن "وظيفة الآلية الحربية للجنيالوجيا تكمن في إماطة اللثام عن منطق الثنائيات الذي ساد عبر تاريخ الفلسفة بحثا عن الحقيقة؛ فما يهم الجنيالوجي، أساسا، هو تعرية المنطق الثاوي خلف تشكلات وانبثاق الخطابات والنصوص"[3] من جهة، واقتلاع الأحكام المسبقة من جذورها ل"تأهيل الذات، المتجاوزة لذاتها، لتستدمج كل ما هو عرضي أثناء نشاطاتها"[4] من جهة أخرى. لكن، ما القواعد الأساسية التي حددتها جنيالوجيا فريدريك نيتشه للآلية الحربية؟

نشير إلى أن فريدريك نيتشه خصص الشذرة السابعة من مقدمة كتابه "هذا هو الإنسان" للحديث عن القواعد الأربع الخاصة بالآلية الحربية للمنهج الجنيالوجي؛ والتي أجملها في الآتي:

"أولا؛ لا أهاجم إلا الخصم التوّاق للانتصار، أو أنتظره ليصير كذلك.

ثانيا؛ لا أهاجم سوى الأشياء التي لا يكون لي حلفاء ضدها، والتي أقف إزاءها وحيدا، وأعتمد ضدها على ذاتي فقط.

ثالثا؛ لا أهاجم الأشخاص إطلاقا، وإنما باعتبارهم شخصيات سامة، ومرآة مصقولة للثقافة المنحطة.

رابعا؛ لا أهاجم سوى تلك الأشياء التي يتم استبعاد كل الفروق الشخصية فيها، والتي تنقصها."[5]

نفهم من القواعد الأربع، التي حددتها جنيالوجيا نيتشه للآلية الحربية، أن الذات المحاربة إذ توجه مطرقتها العنيفة صوب أشياء معينة، وشخصيات محددة، فإنها لا تهاجمها من جهة كونها أشياء وشخصيات، وإنما من جهة خطرها على تعدد الذات، وعلى حيوية الحياة، حيث أضحت العديد من القيم الأخلاقية، والمفاهيم الفلسفية، والتعاليم الدينية أصناما تقف سدا منيعا أمام انبثاق الذات المتجاوزة لذاتها، والتواقة إلى إمكانات التدفق، السيلان والانشطار.

يتعلق الأمر، في نظرنا، بمهاجمة مباغتة وعنيفة لرموز ثقافية مرموقة، وبخلخلة عميقة وهادفة لمنجزات

1- Nietzsche, Friedrich, Le crépuscule des idoles suivi de Le cas Wagner, Traduction d'Henri Albert, Introduction, Chronologie, Bibliographie par Christian Jambet, Flammarion, Paris,1985, PP 12- 13.

2- Ibid., P13.

3- Wotling, Patrick, Nietzsche et le problème de la civilisation, Quadrige, presses universitaire de France, PUF, Paris, 1995, P72.

4- Ibid., P73.

5- Nietzsche, Friedrich, Ecce Homo, Traduit de l'allemand par Jean- Claude Hémery, traduction revue, préfacée et annotée par Dorian Astor, Gallimard, Paris, 2012, aph7, P8.

فكرية وثقافية مشهورة من قبيل: المحاورات السقراطية، النص الهيغيلي، الخطاب الديني المسيحي، المفاهيم الكانطية، الفلسفات العقلانية المنغلقة ذات الجذور الديكارتية، الفلسفات التشاؤمية المؤسسة شوبنهاوريا، الموسيقى الارتكاسية الفاغنرية، والتصورات العلمية لدافيد ستراوس، لإظهار ضعفها وإماطة اللثام عن مغالطاتها؛ إذ يسعى صاحب "التفلسف بضربات المطرقة" إلى الدفع بتلك الرموز والمنجزات للإعتراف بمغالطاتها وأخطائها، مع الكشف عن ما تخفيه وتسكت عنه وتقصيه وتستبعده من الفضاء الحيوي للذات المتجاوزة لذاتها.

نشير إلى أن ما يزعج صاحب "التفلسف بضربات المطرقة" تلك الصروح الشامخة التي شيدها الفلاسفة، العلماء، الكهنة ورجالات الأخلاق تحت مسمى الحقيقة. لذلك، "أخذت المطرقة النيتشوية على عاتقها تحرير الذات من سلطان الحقيقة المطلقة، لتغدو روحا حرا":[1] يتمثل هاجس المطرقة الجنيالوجية، أساسا، في انتشال الذات من شرنقة وعقم صنم الحقيقة الذي بسط سلطانه على الممارسة الفلسفية ردحا من الزمن.

يكشف لنا التفلسف بضربات المطرقة عن غطرسة الأصنام الثلاثة المحدقة بالذات: صنم المعرفة الحقة، صنم الأخلاقية المثالية، وصنم الإيمان الارتكاسي؛ وهذا ما أشار إليه جون لوفرون في كتابه عن فريدريك نيتشه، عندما "ربط أصالة النقد الجنيالوجي لدى نيتشه، مقارنة مع كل نقد تاريخي منجز إلى حدود القرن التاسع عشر، بقدرته على تفكيك تلك الأصنام التي أسدلت ظلالها على الذات الإنسانية في مختلف مجالاتها."[2]

لنقل إذن: إن مهمة المطرقة النتشوية، الموظفة في الآلية الحربية، لا تختزل في مسألة هدم النصوص والخطابات والقيم، بل إنها مطرقة بانية لمفاهيم وقيم جديدة قادرة على مساعدة الإنسان للإقبال على الحياة في بعدها التراجيدي. أو قل: "تسمح مطرقة نيتشه بإجراء تحقيق دقيق في الأصنام المنكرة للحياة عبر فحص صدى صوتها؛ فكلما كان الصوت مدوّيا ورائعا ازدادت سمعته الزائفة لدى الجنيالوجي".[3] الذي لا يتوانى عن مضاعفة القرع إعلانا عن استمرار الحرب الشرسة حيال تلك الأصنام المكبلة للحركة الحرة، والمشي السريع نحو القمم العالية.

ظل العديد من مناصري "التفلسف بضربات المطرقة" يشيدون بهذا الإمكان التفلسفي الجديد الذي اقترحته جنيالوجيا نيتشه، بحيث كتب الناشر بيتر غاست، لمؤلف نيتشه الموسوم ب:"أفول الأصنام"، يقول: "لقد خرجتم بعدتكم الحربية الثقيلة إلى أعلى المرتفعات، ولديكم من المدافع ما لا يوجد له مثيل، وليس لكم إلا أن تطلقوا النار بعينين مغمضتين كي تصيبوا كل ما يحيطكم بالهلع"؛[4] وكان مقصوده تشجيع فريدريك نيتشه لتغيير العنوان الذي اقترحه لكتابه: "عطالة خبير نفساني"، واستبداله بعنوان جديد: "أفول الأصنام"، أو "التفلسف بضربات المطرقة".[5]

صحيح أن فريدريك نيتشه يقدم نفسه باعتباره الفيلسوف المحارب، وصحيح أن نصوصه تحضر فيها ملفوظات: الصراع، العنف، والحرب بشكل كبير، بما هي مفعولات ل"إرادة القوة". لكن، نشير إلى أنه يتعين فهم ذلك في سياق إستطيقي يعبر عن الطابع التراجيدي للوجود من حيث فظاعته وتناقضاته المقوية للذات الباحثة عن تجاوز ذاتها بشكل مستمر. لذلك، نسجل أن جنيالوجيا نيتشه إذ أعلنت عن استراتيجية الحرب، فإنها موجهة، فقط، ضد الأفكار والمفاهيم والمعتقدات والقيم الارتكاسية بعيدا عن الأشخاص الذين أنتجوها.

1- Wotling, Patrick, La philosophie de l'esprit libre, Introduction à Nietzsche, Éditions Flammarion, Paris, 2008, P50.

2- Lefranc, Jean, Comprendre Nietzsche, Armand Colin, Paris, 2003, P145.

3- Kessler, Mathieu, L'esthétique de Nietzsche, PUF, coll. « Thémis philosophie », Paris, 1998, P 227.

4- نيتشه، فريدريك، أفول الأصنام أو التفلسف قرعا بالمطرقة، ترجمة حسان بورقية ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1996، ص 5.

5- المصدر السابق، الصفحة نفسها.

نفهم، إذن، بأن الحرب التي تحرض عليها "إرادة القوة" ليست "حربا دموية موجهة إلى الآخر، ما دام الدم يسمم أنقى المذاهب؛ فيحولها إلى حقد القلوب، وكراهية النفوس"،[1] بل إنها الحرب الشرسة التي تشنها الذات على ذاتها، بشكل مستمر، لتبوح بإمكاناته المفعمة بالحيوية والإبداعية لفسح المجال أمام قوى الفعل للتفوق على قوى الارتكاس بداخل الذات المتجددة؛ وهذا ما حدا بزرادشت إلى القول: "عليك أن تصلي ذاتك كل يوم حربا، وليس لك أن تبالي بما تجنيه من نصر أوتجني عليك جهودك من اندحار".[2] فهل يستفاد من هذا القول أن الآلية الحربية التي توظفها جنيالوجيا نيتشه للانتصار على الذات يوقعنا في نزعة زهدية محتقرة للذات، ومنكرة للغرائز الحيوية بداخل الذات؟

يوضح أويغن فينك أن المقول النيتشوي "الانتصار على الذات" لا يحمل أي مضمون زهدي يعلنها حربا عنيفة ضد الغرائز الحيوية للذات الديناميكية، بل "يحمل بين طياته مدلولا غريزيا يتغيا تحريض قوى الحياة المتصاعدة التي تخلق أشكالا من القوة الإبداعية المتجددة بداخل الذات من دون توقف ولا كلل"،[3] بل إن صيغة "الانتصار على الذات" تعزز ثقة الذات المتجددة بذاتها، لا احتقارها وتبخيس غرائزها.

فعلا، يبدو لنا أن مسألة "الانتصار على الذات" تحتاج "ثقة بالذات" لتحقيق السمو المستمر للذات عبر بوابة الحرب الفعالة؛ وهذا ما حدا بفريدريك نيتشه إلى وسم الشذرة رقم 284 من مؤلفه "العلم المرح" ب: "الثقة بالذات"؛ مميزا بين من يحارب ذاته حرب فعل، فيحقق لها الاقتدار، ويقدرها أيّما تقدير، وبين من يحارب ذاته حرب انفعال، فيحتقرها أشد الاحتقار، وينتقم من دوافعها الغريزية أيما انتقام. لذلك، يرى زرادشت أن "قليلا من الناس من يملك ثقة بذاته؛ فمنهم من يتلقاها عند الولادة، ومنهم من يكتسبها."[4] وإذا كان مسعى الجنيالوجي، التواق لغد أفضل، يراهن على الحرب لتحقيق السيادة والعلو والاقتدار للذات المتجاوزة لذاتها، فهل آن الأوان لتفعيل هذه الآلية الحربية لإعادة وصل الذات بذاتها المفقودة؟

ذكر مارتن هايدجر أن فريدريك نيتشه كتب، في الفترة الزمنية الممتدة بين 1881 و1882، ما يلي: "سيأتي الوقت الذي يمكن خوض الحرب من أجل السيادة باسم "المذاهب الفلسفية الأساسية Les doctrines fondamentales philosophiques"؛[5] علما أن فلسفة المستقبل التي تتوخاها جنيالوجيا نيتشه تروم بلورة معنى ديناميكي للذات، متوسلة ب"إرادة القوة" من حيث كونها محركا ذاتيا يدفع الذات خارج ما هي عليه، ويفتحها على إمكانات المغايرة والاختلاف والتعدد.

هكذا، يتضح لنا أن زرادشت فريدريك نيتشه إذ يحرضنا على البحث المستمر عن العدو بداخلنا لنفتعل معه حربا، فإنه يطالبنا بتجديد قيمنا وأفكارنا والانعتاق من سلطان الارتكاس الذي تربص بنا ليشل حركتنا ويعرقل سيرنا نحو الأمام؛ "فما الإنسان أيها الرفيق إلا كائن وجب عليه أن يتفوق دوما على ذاته"،[6] لينخرط في المشروع الإبداعي اللامتناهي للذات المتجاوزة لذاتها بشكل مستمر.

1- Nietzsche, Friedrich, Ainsi parlait Zarathoustra, Traduction, préface et commentaires de Georges- Arthur Goldschmidt, Librairie Générale Française, Paris, 1983, P115.

2- نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فيلكس فارس، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، مصر، 1938، ص 12.

3- Fink, Eugen, La philosophie de Nietzsche, traduit par Hans Hildenbrand et Alex Lindenberg, Éditions de minuit, France, 1965, P100.

4- نيتشه، فريدريك، العلم المرح، الكتاب الرابع، ترجمة وتقديم حسان بوريقة ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1993، الشذرة 284، ص 156.

5- Heideger, Martin, Nietzsche 2, traduit par pierre Klossowski, Éditions Gallimard, Paris, 1971, P 210.

6- نيتشه، فريدريك، العلم المرح، الكتاب الرابع، مصدر سابق، ص 46.

خاتمة:

من نافل القول: أفضى بنا مسار التفكير في إمكانات منهجية تساهم في بلورة معنى ديناميكي للذات المعاصرة اعتمادا على آليتي المنهج الجنيالوجي (الآلية الفيلولوجية والآلية الحربية) إلى استخلاص النتائج الآتية:

أولا: تكمن راهنية آليات المنهج الجنيالوجي عند نيتشه في كونها تقاوم التفسير الدوغمائي أو التأويل الأحادي المعنى للذات؛ إذ استطاعت أن تبدع أسلوبا جديدا في التفلسف قوامه الشذرة والقصيدة L'aphorisme et le poème؛ والذي بمقتضاه صار التفكير الجنيالوجي، بخصوص مسألة الذات، يشتغل بوصفه قوة رحالة و متنقلة تروم تقويض مزاعم النزعات الميتافيزيقية في الفلسفة التقليدية التي تعتقد من جهة أن كل نظام ملازم بالضرورة للماهية الحقيقية للأشياء، وتعتقد من جهة أخرى أن كل ما هو غير منظم، وينتمي إلى عالم المظاهر (ينتمي إلى الواقع) فهو ناقص ومضلل.

ثانيا: إن المنهج الجنيالوجي إذ يتوخى، عن طريق الآلية الفيلولوجية، الصعود بمختلف الخطابات الارتكاسية إلى القوى التي أنتجتها بغية تفكيك شفراتها، وإماطة اللثام عن السلطة الثاوية خلفها، والتي منحتها مشروعية وصلاحية لفترة تاريخية معينة، فإنه يروم تعرية القوى الارتكاسية المحركة للذات الدوغمائية؛ بحثا عن إمكانات تحرير الذات الديناميكية من كل تأويل ارتكاسي يسعى إلى اختزالها في مفهوم متكلس أو معنى مغلق أو قيمة محددة قبليا أو غاية وحيدة ونهائية.

ثالثا: تتمحور الآلية الحربية للمنهج الجنيالوجي حول مفهوم "التفلسف بضربات المطرقة"؛ إذ تهوي هذه الآلية الحربية على المثل الأخلاقية، النصوص الميتافيزيقية والخطابات اللاهوتية بواسطة مطرقتها العنيفة. بيد أن الحرب التي تحرض عليها "إرادة القوة" ليست حربا دموية موجهة إلى الآخر، بل إنها الحرب الشرسة التي تشنها الذات على ذاتها، بشكل مستمر، لتبوح بإمكاناته المفعمة بالحيوية والإبداعية لفسح المجال أمام قوى الفعل للتفوق على قوى الارتكاس بداخل الذات المتجددة.

قائمة المصادر والمراجع:

1. قائمة المصادر:

1.1.قائمة المصادر بالعربية:

- نيتشه، فريدريك، في جنيالوجيا الأخلاق، ترجمة وتقديم فتحي المسكيني، مراجعة محمد محجوب، منشورات دار سيناترا، المركز الوطني للترجمة، تونس، 2010.
- نيتشه، فريدريك، أفول الأصنام أو التفلسف قرعا بالمطرقة، ترجمة حسان بورقية ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1996.
- نيتشه، فريدريك، العلم المرح، الكتاب الرابع، ترجمة وتقديم حسان بوريقة ومحمد الناجي، إفريقيا الشرق، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1993.
- نيتشه، فريدريك، هكذا تكلم زرادشت، ترجمة فيلكس فارس، مطبعة جريدة البصير، الإسكندرية، مصر، 1938.

2.1. قائمة المصادر بالفرنسية:

- Nietzsche, Friedrich, Ecce Homo, Traduit de l'allemand par Jean- Claude Hémery, traduction revue, préfacée et annotée par Dorian Astor, Gallimard, Paris, 2012.
- Nietzsche, Friedrich, Humain trop humain, Vol 1, Trad. Robert Rovini, Gallimard, Paris, 1987.
- Nietzsche, Friedrich, L'antéchrist, Traduction et présentation de Dominique Tassel, Union générale d'éditions, France, 1985.
- Nietzsche, Friedrich, Le crépuscule des idoles suivi de Le cas Wagner, Traduction d'Henri Albert, Introduction, Chronologie, Bibliographie par Christian Jambet, Flammarion, Paris,1985.
- Nietzsche, Friedrich, Par- delà le bien et le mal, Traduction et présentation de Patrick Wotling, Éditions Flammarion, Paris, 2000.
- Nietzsche, Friedrich, Ainsi parlait Zarathoustra, Traduction, préface et commentaires de Georges- Arthur Goldschmidt, Librairie Générale Française, Paris, 1983.

2. قائمة المراجع:

1.2. قائمة المراجع بالعربية:

- إبراهيم، عبد الله، المركزية الغربية، إشكالية التكون والتمركز حول الذات، المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1997.
- أندلسي، محمد، الفلسفة من منطق العقل إلى منطق الجسد، جنيالوجيا الخطاب الميتافيزيقي، جامعة مولاي إسماعيل كلية الآداب والعلوم الإنسانية مكناس، سلسلة دراسات وأبحاث 11، المغرب، 2003.
- فوكو، ميشيل، جنيالوجيا المعرفة، ترجمة أحمد السطاتي وعبد السلام بن عبد العالي، دار توبقال للنشر، الدار البيضاء، المغرب، الطبعة الأولى، 1988.
- مفرج، جمال، الإرادة والتأويل تغلغل النيتشوية في الفكر العربي، منشورات الاختلاف، الجزائر، الطبعة الأولى، 2009.

2.2. قائمة المراجع بالفرنسية:

- Fink, Eugen, La philosophie de Nietzsche, traduit par Hans Hildenbrand et Alex Lindenberg, Éditions de minuit, France, 1965.
- Heideger, Martin, Nietzsche 2, traduit par pierre Klossowski, Éditions Gallimard, Paris, 1971.
- Kessler, Mathieu, L'esthétique de Nietzsche, PUF, (coll. « Thémis philosophie »), Paris, 1998.
- Lefranc, Jean, Comprendre Nietzsche, Armand Colin, Paris, 2003.
- Ray, Jean- Michel, L'enjeu des signes, lecture de Nietsche, les éditions du seuil, Paris, 1971.

- Wotling, Patrick, La philosophie de l'esprit libre, Introduction à Nietzsche, Éditions Flammarion, Paris, 2008.
- Wotling, Patrick, Le Vocabulaire de Nietzsche, Ellipses, Paris, 2013.
- Wotling, Patrick, Nietzsche et le problème de la civilisation, Quadrige, presses universitaire de France, PUF, Paris, 1995.